

أثر الدراسات القرآنية المعاصرة في تجديد الموقف من السنة النبوية:

أبو القاسم حاج حمد ومحمد شحرور نموذجا

عبد اللطيف طريب
باحث مغربي



قسم الدراسات الدينية

على سبيل التقديم:

لعل البعض قد يتساءل عن موقع هذا الموضوع ضمن أعمال رجلين كرسا مشروعيهما للدراسات القرآنية، وأصبحا من أعلامها المميزين باجتهاداتهم المعرفية في هذا المجال. والجواب أن الرجلين معا وجدا نفسيهما، وهما ينتحان عدتهما المنهجية في التعامل مع القرآن الكريم وربطه بالقضايا المعاصرة للمسلمين يتعاملان أيضا مع السنة النبوية باعتبار الواقع الثقافي والتاريخي للمسلمين الذي كرس حضور القرآن والسنة كجسم موضوعي موحد، متداخل في جزئياته أيما تداخل ومترابط في بنية ثقافية واحدة أيما ترابط.

ويمكن القول بداية، إن أعمال كل من شحور وحاج حمد قامت في مجملها على فك هذا الارتباط العضوي في المعرفة والثقافة الإسلامية بين النص القرآني والنص النبوي، وإثبات التفاوتات المنهجية بينهما، وهو ما يدفعنا إلى أهمية التعرف على الحجج المبررة لهذا الاتجاه والبحث في مدى تحقيق إضافات نوعية للدراسات الإسلامية، تفيد المسلمين اليوم في تعاملهم مع الكتاب والسنة بمنهجية فعالة.

ذلك أن الهم الذي انطلق منه كل من شحور وحاج حمد هو الواقع الثقافي الإسلامي وما يقدمه الخطاب الديني بأطيافه المتعددة لمواجهة إشكالات وتحديات المرحلة. فقد ظهرت مزالق واختلالات خطيرة على هذا المستوى جسدتها الفتاوى الغربية والشاذة في بعض القضايا الاجتماعية خاصة، وكذلك تضارب وتناقض الاستدلالات في قضايا حساسة، مثل الجهاد في الإسلام والتعامل مع الآخر... فالزاوية الفقهية التي رسدها المرحوم أبو القاسم حاج حمد والدكتور محمد شحور لهذا الموضوع بينت لكل منهما أن مصدرها التعامل السائد تقليديا في الربط العضوي بين القرآن والسنة وفق الطرح الذي يعتبرونه "تقليديا" والمتمثل في اعتبار القرآن كتابا مجملا جاءت السنة لتبيينه وتفسيره للناس. واستلزم هذا الأمر عندهما إعادة النظر في المنهجية المعرفية لقراءة المصادر الإسلامية، خصوصا وأنهما يعتبران التجديدات الفقهية الممارسة من بعض الاتجاهات الإسلامية محدودة وضيقة للغاية. ومن هنا يأتي ما يمكن اعتباره تأسيسا معاصرا لفهم القرآن والسنة وكيفية التعامل معهما من خلال الدراسات القرآنية المعاصرة لكل من محمد شحور وحاج حمد.

وسوف نقف في هذه المداخلة عند المنطلقات والمداخل التي توصل بها الرجلان لبناء منهجية مستحدثة في التعامل مع السنة النبوية، انطلاقا من المعالجة التي قدمها كل منهما للتعامل مع القرآن الكريم. كما سنتعرف على انعكاس استعمال هذه المداخل في تجديد الموقف من السنة النبوية وقيمتها وأهميتها في المعرفة الإسلامية.

أولاً: مداخل حاج حمد في التعامل مع القرآن وأثرها في موقفه من السنة النبوية

ألمحنا من خلال المقدمة إلى أن الإشكال الأساسي الذي خصص له حاج حمد جهوده كان هو قراءة منهجية جديدة للقرآن الكريم، ومن خلال ذلك طبعاً كان لا بد من معالجة موضوع السنة النبوية، ولهذا كان من ضمن المداخل التأسيسية لمشروع العالمية الإسلامية الثانية عرض لما سماه المرحوم حاج حمد "عناصر الإشكالية المثارة"، وفيها يذكر ما له صلة بإشكالية التعامل مع السنة النبوية ضمن إشكاليات التعامل مع القرآن الكريم، يقول: "القرآن هو المصدر الكلي للمعرفة الكونية المطلقة بوصفه (الوعي المعادل موضوعياً للوجود الكوني وحركته)، وأن إدراك خصائصه المنهجية والمعرفية يتطلب الجمع بين القراءتين وصولاً إلى اكتشاف (جدلية الغيب والإنسان والطبيعة)".¹

ثم يعقب على هذا الكلام بما يثيره من إشكاليات على رأسها تعدد المرجعيات ووجود التأويلات المختلفة، مثل قصر القرآن حد الزنى في الرجم ووجود حد الرجم في السنة النبوية، مما يؤدي حسب رأيه إلى غياب الاتساق المنهجي بين النصين، ومنها أيضاً "تقييد دلالات معظم الآيات بالواقع التاريخي كخلفية لفهمها فيما عرف بأسباب النزول... ثم إن الجهد التدويني الذي بلغ قمته في القرن الثالث الهجري قد مثل سلطة مرجعية في فهم النص".²

أ- مداخل محمد أبي القاسم حاج حمد في التعامل مع السنة النبوية:

يضع الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد مجموعة من الضوابط المنهجية المعرفية في التعامل مع النص القرآني ممثلة في خمسة ضوابط، كل واحدة منها ذات تأثير مباشر أو غير مباشر في التعامل مع السنة النبوية، وحتى لا يطول بنا المقام، سوف نكتفي ببيان اثنتين من هذه الضوابط. فأول هذه الضوابط ما نص عليه بالقول: "كيفية الاسترجاع القرآني للموروث الروحي البشري بمنطق الهيمنة النقدية والتحليل خلافاً للاسترجاع التراثي العفوي الذي يتمثل العقلية الإحيائية واللاهوتية".³

¹ - محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، ص 32

² - العالمية الإسلامية الثانية، ص 35

³ - محمد أبو القاسم حاج حمد، ابستمولوجية المعرفة الكونية.

والاعتماد على هذا الضابط المنهجي، سيقوده إلى اعتبار "القرآن ليس مهيمنا فقط على ما سبق عبر الاسترجاع التحليلي النقدي لكنه مهيمن أيضا على ما يلحق بما في ذلك فترة التنزيل وما بعدها"⁴.

من ناحية أخرى، ينتهي حاج حمد في تحديد منهجية القرآن الاسترجاعية إلى اعتبارها قائمة على ما يسميه (عالمية الخطاب وحاكمية الكتاب وشرعة التخفيف والرحمة) وذلك من التفريق الذي يقيمه بين نسق التشريع الإسلامي ونسق التشريع التوراتي، ويترتب عن ذلك أن السنة النبوية لا يمكن أن تخرج عن حاكمية الكتاب وعالمية الخطاب وشرعة التخفيف والرحمة. ومن ذلك أنه يعتبر بعض العقوبات الصارمة، مثل الرجم وقطع الأطراف والأيدي ليست من الإسلام ويصفها بـ "عقوبات إصر وأغلال توراتية وغير إسلامية دست على التشريع الإسلامي دسا، كدس مفهوم الحاكمية الإلهية، وهو دس متعمد لتكذيب نبوة محمد بوصفه ليس قائما على شرعة التخفيف والرحمة، فلا يتوجب على اليهود اتباعه طالما أن شرعته تماثل شرعة موسى"⁵.

وتبقى المشكلة التي تواجه هذا النوع من الفهم لعلاقة السنة بالقرآن، أن القرآن نفسه يضم تشريعات، مثل قطع يد السارق، والتي تعتبر بمنطق المرحوم أبي القاسم حاج حمد عقوبة إصر وأغلال، وقد حاول الإجابة عن هذا الإشكال اعتمادا على مقولة أخرى، تقول بنسبية التشريع في علاقته مع بيئته التاريخية الحاملة، إلا أنه لم يوفق في الجانب التطبيقي لذلك.

ومن تم، فإنه يعمم هذه القاعدة المنهجية معتبرا كل رواية تنسب للنبي صلى الله عليه وسلم تطبيق شرعة الإصر والأغلال لا يمكن الاستجابة لها مصداقا لقوله تعالى: "الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون"⁶.

أما المدخل المنهجي الثاني لحاج حمد، فهو مدخل لغوي حيث يرى أن الاستخدام القرآني للمفردة اللغوية وعائدها المعرفي يكون بدلالة واحدة محددة تنفي أي ترادف أو اشتراك أو تضاد... يقول في المداخل التأسيسية لمشروع العالمية: "فالقرآن ليس عربيا فقط، باعتباره متنزلا بلغة العرب، ولكنه كبناء إلهي ضمن هذه اللغة

⁴- ابستمولوجية المعرفة الكونية.

⁵- ابستمولوجية المعرفة الكونية.

⁶- سورة الأعراف، الآية 157

استوعب مفردات اللغة نفسها ضمن استخدامات دقيقة للغاية، قل أن فطن إليها أهل اللغة أنفسهم... فهناك فارق دقيق بين شاعرية العرب اللغوية مع تفرد لها اللساني، ودقة التوظيف القرآني لهذه اللغة".⁷

وبتفريقه المنهجي بين القرآن وكلام العرب يكون حاج حمد قد فتح جبهة أخرى في التعامل مع السنة النبوية التي تعتبر وفق التقليد الإسلامي مفسرة للقرآن، وهو المستند القوي الذي يرى من خلاله علماء المسلمين أهمية السنة النبوية، باعتبارها النص المبين لما أجمل ذكره في القرآن، إذ ما لبث حاج حمد أن تحدث أيضا عن ضوابط الاستخدام المنهجي للنبي للغة. وذلك من منطلق المقارنة بين لغة الرسول صلى الله عليه وسلم ولغة القرآن، وفي ذلك يقول: "أكد أيضا التوافق والانسجام التام بين لغة الرسول صلى الله عليه وسلم ولغة القرآن، حيث لا يحدث التضارب في المعاني والدلالات، واتخذت نموذجا لذلك الحديث المنسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي يرد فيه القول (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته). وأوضحت تضاربه مع آيتين وردتا في القرآن، الأولى: "يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم".⁸

وكذلك: "من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا وسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وسمعوا وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا".⁹

إذن، فما قيمة السنة النبوية عند أبي القاسم حاج حمد؟ وما المنهج الذي يقترحه للتعامل معها؟

ب- قيمة السنة النبوية وأهميتها في أطروحة أبي القاسم حاج حمد:

نشير هنا إلى مزلق خطير قاد بعض أصحاب الدراسات القرآنية المعاصرة إلى حل هذا الإشكال بالقول إن القرآن واضح لا يحتاج لبيانات السنة ولا يحتاج إلى تفسير، وهو ما يصطدم باعتراضات قوية من أهمها وجود آيات عديدة في القرآن تتضمن أحكاما مجملة لا يمكن معرفة أدائها إلا من خلال البيان النبوي المضمن في السنة النبوية، بالإضافة إلى وجود أمور غامضة أو ملغزة أحيانا في القرآن الكريم (مثل الأحرف المقطعة في أوائل السور). ويخطئ من يعتقد أو يظن أن حاج حمد كان قرآنيا بالمعنى الذي ينفي فيه أو يلغي دور السنة النبوية، فقد بين في مواضع عديدة أهمية السنة وكيف يفهمها ويطبقها ضمن منهجية القرآن المعرفية، وفي ذلك

⁷ - محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، ص 64-65

⁸ - سورة البقرة، الآية 104

⁹ - سورة النساء، الآية 46

يقول: "ويستند فهمنا للسنة النبوية بأشكالها الثلاثة - القولية والفعلية والصامتة - كتجسيد نسبي ومواز للقرآن على التالي:

أولاً: صدور النبي عن وحي منضبط مع محددات القرآن المنهجية، فكما أقسم الله بمواقع النجوم في الصياغة القرآنية، أقسم بها كذلك تجاه السنة النبوية "والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى".¹⁰

ثانياً إن مرجعية السلطة النبوية مستمدة من الله مباشرة "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول لعلمكم ترحمون"¹¹ فهنا إلزام إلهي بطاعة الرسول، وما سبق من موازاة بين عصمة القرآن وعصمة الرسول.

ولهذا، فإن القول بأي تناسخ أو تضارب بين القرآن والسنة؛ أي بأن تأتي السنة بما يخرج عن محددات المنهج، فيعني ذلك أن تطبق آية من أخطر الآيات "وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً"¹².

والمحددات هي عالمية خطاب وحاكمية كتاب وشرعة تخفيف ورحمة.

وخلاصة موقف المرحوم أبي القاسم حاج حمد من السنة النبوية، يظهر جلياً مما عرضه ضمن فقرة بعنوان (ضوابط فهم السنة في علاقتها بالقرآن)، حيث قال: "نؤكد ضرورة الالتزام بمرجعية السنة الصحيحة التزاماً لا لبس فيه ولا غموض، وذلك لسبب أساسي وجوهري يتعلق بضبط اجتهادات الأمة وعلمائها ومفكراتها في ما يأخذونه من منهجية القرآن. فلو لم يكن الرسول بقوله وفعله الصحيحين يمثل المرجعية التطبيقية لمنهجية القرآن لوقع اختلاف كبير بين المجتهدين".¹³

ويقول أيضاً: "إن قيمة السنة النبوية المطهرة ليست فقط في ما قاله الرسول أو فعله، بل فيما لم يقله و يفعله أيضاً، فلو أورتنا الرسول تفسيراً للقرآن، لكان قد قيد مطلق الكتاب إلى ظرفية واقع التطبيق ونسبيته، فيفقد

¹⁰ - سورة النجم.

¹¹ - سورة آل عمران، الآية 132

¹² - سورة الإسراء، الآية 73

¹³ - نفسه، ص 70

القرآن استمراريته وتفاعله مع متغيرات العصور النوعية وليس التراكمية فقط، ولما حق لمن بعده أن يفسر على تفسيره"¹⁴.

لقد رأى المرحوم أبو القاسم حاج حمد أن عدم ترك النبي صلى الله عليه وسلم تفسيراً للقرآن شبيه بعدم تركه خليفة معيناً من حيث الغاية. ذلك أن السبب يرجع في تصويره إلى عدم تقييد الخطاب العالمي للقرآن إلى وضعية تاريخية محددة أو تطبيق تاريخي محدد. فالعالمية تقتضي مرونة التطبيق مراعاة للأنساق الحضارية المختلفة ومتغيراتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وقياساً على ذلك أيضاً، تساءل حاج حمد عن الحكمة الإلهية من عدم ترك النبي صلى الله عليه وسلم ابناً يرثه، مبيناً أن كل ما سبق بمثابة إشارات إلى ختم النبوة والاتجاه نحو تطبيق إطلاقية القرآن وفق متغيرات العصور اللاحقة.

ويذهب محمد أبو القاسم حاج حمد أبعد من ذلك، حين يعتبر أن العرب زمن نزول القرآن لم يكونوا مؤهلين للنفوذ إلى المنهج القرآني عبر التحليل، ولذلك مست الحاجة للسنة النبوية للقيام بدور الوسيط الحي والفعال في ما بين حقائق الوعي القرآني في مطلقها وتصورات الوعي البشري في نسبيتها التاريخية.

وبخصوص كيفية التعامل مع السنة النبوية، يرى أبو القاسم حاج حمد ضرورة التعامل مع السنة النبوية وفق منهجية تقوم في الأساس على عرض الأحاديث على القرآن الكريم؛ ففي كتابه (العالمية الإسلامية الثانية) يقول: "فالخطورة المنهجية أن الحديث المخالف للمنهج القرآني يبطل صدقية النبوة الخاتمة نفسها"¹⁵ ثم يخلص إلى القول: "ولهذا حين يعرض علينا ما ينسب إلى السنة في نسخها لبعض أحكام القرآن، فإننا لا نفعل أكثر من استفتاء القرآن المعصوم فيما يورده الناس ويتقولونه. فالقرآن هو المصدق والمهيمن، وإليه يرجع القول الفصل، وقد عالج القرآن من قبل أقاويل أهل الذكر من قبلنا ونقدها وصححها، إذ يملك القرآن قدرات الاسترجاع النقدي بالتصديق والهيمنة معاً، وليس مجرد التصديق السلبي وإلا لما صدق على ما قاله الأولون من دون استرجاع نقدي وتصحيح، فالقرآن هو الآن دليلنا إلى صحيح السنة"¹⁶.

¹⁴ - نفسه، ص 73

¹⁵ - نفسه.

¹⁶ - نفسه، ص 75

ثانياً: مداخل محمد شحرور في التعامل مع السنة النبوية (من القراءة المعاصرة للقرآن إلى القراءة المعاصرة للسنة النبوية)

أ- مداخل محمد شحرور في التعامل مع السنة النبوية:

يمكن القول إن المدخل اللغوي هو أهم أساس أقام عليه الدكتور محمد شحرور دراسته القرآنية، ويعتمد في جوهره على إنكار الترادف في اللغة العربية، وهي الآلية التي سيستخدمها شحرور بشكل مكثف وربما متطرف أحياناً، والتي ساهمت في وصوله إلى نتائج جديدة في قضايا متعددة، ومن منطلق هذا المدخل اللغوي في دراسته القرآنية والقائم على اللا ترادف في اللغة، توجه محمد شحرور إلى معالجة قضية السنة النبوية من مدخل التفريق بين المقامات المحمدية: الإنسان النبي الرسول، فعقد فصلاً في كتابه الكتاب والقرآن بعنوان: **السنة**، فرق من خلاله بين سنة النبي وسنة الرسول، معتبراً أن الآيات المخاطبة لمقام النبوة بعبارة يا أيها النبي تحتوي على تعليمات أو إرشادات أو حالات خاصة بالنبي حصراً، وليس لها علاقة بالحلال والحرام إطلاقاً، حيث إن الطاعة جاءت في مقام الرسالة بقوله: "وأطيعوا الله والرسول"¹⁷.

وسوف نقف في الشطر الثاني من هذا المبحث على الرؤية الجديدة التي يقدمها محمد شحرور للسنة النبوية، ولكن قبل ذلك، لا بد من الوقوف عند الإشكالات التي واجهت شحرور وجعلته يأخذ هذا المنحى في التأسيس لقراءة معاصرة للسنة النبوية بعد قراءته المعاصرة للقرآن الكريم. فقد ازداد اهتمام الدكتور محمد شحرور بموضوع السنة النبوية إلى درجة جعلته يحذف هذا الفصل المتعلق بالسنة من الطبعة الجديدة لكتابه (الكتاب والقرآن) ويخصص كتاباً مستقلاً لهذا الموضوع بعنوان: {السنة النبوية والسنة الرسولية}، منطلقاً في دراسته من القضايا المستجدة في العالم العربي والإسلامي خصوصاً بعد أحداث 11 سبتمبر، حيث ازداد السجال الديني في قضايا الجهاد الإسلامي والقتال ثم تفاقمت الأمور - من وجهة نظره - بعد صعود التيار الإسلامي عقب أحداث الربيع العربي وما جرى أثناء كل ذلك من توظيف انتقائي للنصوص الدينية، خاصة الأحاديث النبوية. يقول في مقدمة الكتاب: "وشعرت أنه لزاماً علي أن أقدم قراءة معاصرة للسنة وكيف أن هذا المصطلح تحول إلى سيف مسلط يضعه الهامانات والحركات الإسلامية على حد سواء على رؤوس الناس"¹⁸.

وهو ما يستنتج منه، أن الدكتور شحرور سعى وتجراً للدخول إلى دائرة من يسميهم الهامانات، يقول: "وصار الدين لعبة في أيديهم، كلما أرادوا تشريعاً يخدم مصالحهم أو مصالح حكاهم صنعوا حديثاً يتناسب مع أهدافهم وطبقوه على المجتمع، حتى لو كان مناقضاً للتنزيل الحكيم، حتى لو احتلت هذه الصناعة مرتبة أعظم

¹⁷ - الكتاب والقرآن، لمحمد شحرور، ص 550

¹⁸ - من مقدمة كتاب السنة النبوية والسنة الرسولية لمحمد شحرور.

من مرتبة التنزيل، فضع المشروع الحضاري للأمة الإسلامية التي تحولت من أمة ذات مشروع نهضوي ذي نص مؤسس هو التنزيل الحكيم إلى أمة على هامش التاريخ بسبب الانقطاع المعرفي الذي أحدثته صناعة الحديث والتشيت به كوحى حاكم عليه وتقديس حقبة تاريخية زمنية معينة بأسطرتها، وجعلها المثال الذي يجب أن تنشأ أو تسير كل المجتمعات على نسقه"¹⁹.

وهو هنا يتفق مع حاج حمد في عدم تجميد النص الكوني في إطار البيئة الرعوية الزراعية ومحدداتها الزمنية والمكانية والثقافية.

في هذا الكتاب تمسك محمد شحور بقراءته السابقة في التفريق بين مقامات النبي محمد صلى الله عليه وسلم انطلاقاً من القرآن، غير أنه فتح المجال على مصراعيه للسجال مع التراث الإسلامي في علوم الحديث.

ومن أهم ما توقف عنده محمد شحور توظيف السنة النبوية في التاريخ الإسلامي، إذ يرى أنها كانت بمثابة سلاح لحسم النزاعات الطائفية والسياسية والعقائدية والمذهبية... وظاهرة استمرت 15 قرناً حتى يومنا هذا، وكان من نتائجها تضخم كتلة الحديث النبوي وما ترتب عنه من تعدد الروايات وتناقضها في الموضوع الواحد (مثال التشهد). وقد ربط شحور ربطاً ذكياً بين معطى تضخم الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي يتعارض مع حقيقة مقررة أن الأنبياء بُغَاء؛ أي كلامهم قليل، واعتماداً على حسابات رياضية قسم فيها ما حفظه أبو زرة من أحاديث وعددها 840.000 حديث على مدة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بالأيام، فكانت النتيجة وفق حساباته تكلم النبي بـ 105 حديث في اليوم. ثم يستنتج أن ذلك محال من الناحية العملية. وفي هذا التحليل والاستنتاج مزلق أهمها، أنه احتسب ما يحفظه أبو زرة - على فرض صحته - أحاديث مختلفة، في حين أن المتعارف عليه عند علماء الحديث تعدد طرق الحديث الواحد؛ فالعدد الضخم للأحاديث لا يعني بالضرورة متونا مختلفة، وإنما قد يكون للمتن عشرات الطرق، وكلها تعتبر أحاديث في الاحتساب. أما الأمر الثاني في هذا الاستنتاج، فيرجع إلى أن الأحاديث ليست بالضرورة أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، فالسنة النبوية كما هو معلوم عند أهل الشأن أنواع ثلاثة، قولية وفعلية وتقريرية، وحسابات الدكتور شحور تكون أقرب للقبول لو كانت السنة قولية فقط. غير أن الدكتور شحور سيوفق في طرح تساؤل مهم للغاية في سياق نقده للسنة النبوية وحجبتها في التراث الإسلامي؛ فقد أجرى حسابات أخرى حول مصير خطب الجمعة وعددها وفق ما احتسب ما يقارب 400 خطبة، فيتساءل لماذا لم تصل إلينا؟

¹⁹ - نفسه، ص 87

يرجع محمد شحرور إلى سياق الآيات من سورة الإسراء التي استدل بها الإمام الشافعي عن معنى الحكمة انطلاقاً من قوله تعالى: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً..." مشيراً إلى المعاني التي تضمنتها الآيات المتتالية من نهي عن التقدير والتبذير، وعن قتل الأولاد خشية إملاق، وعن الزنى، وعن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وعن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، ثم يأمر بإيفاء الكيل والوزن بالقسط، وبترك الفضول والتدخل في ما لا يعني، ثم يعود إلى النهي عن العجرفة والتعالي والتكبر يختم كل هذا بقوله تعالى: "ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة..." (الإسراء، 39)

ويستخلص من هذه القراءة السياقية لمفهوم الحكمة في آيات سورة الإسراء، أنها تعني "جملة الأوامر والنواهي التي بدأت بعبارة "وقضى ربك" في الآية وانتهت بعبارة "ولا تمش في الأرض مرحاً".²⁰ هذه بعض المعاول التي وجهها الدكتور محمد شحرور لنقض البناء المعرفي والمنهجي للسنة النبوية في التراث الإسلامي، فلنتعرف كيف قدم قراءته الجديدة والبديلة لما تم نقده ونقضه.

ب- محمد شحرور والسنة النبوية: رؤية جديدة

بتخصيصه كتاباً مستقلاً في الموضوع، سيطرق الدكتور محمد شحرور لموضوعات ذات أهمية كبرى في التعامل مع السنة النبوية وتجديد الموقف بشأنها، ومن أهم ما وقف عليه وقدم فيه لمحات إضافية نوعية هو مفهوم السنة نفسه انطلاقاً من القرآن الكريم؛ فهو يرى أن "السنة من فعل سن وتعني في اللسان العربي اليسر والجريان بسهولة كقولنا ماء مسنون... وجاءت كذلك بمعنى الطريقة والمثال.... ولأن مآل السنن التغيير والتبدل، فالتنزيل الحكيم لم يصرح أبداً بتثبيت أية سنة من السنن، بل على العكس من ذلك تماماً، في كل مرة يبين لنا أنها ليست مستمرة، بل مآلها دائماً الزوال والتبدل، بدليل تعدد السنن وتعاقبها بعضها وراء بعض"²¹ وذكر آيات قرآنية عديدة استدلالاً على ما ذهب إليه، ليخلص بعد ذلك إلى وجود نوعين من السنن في التنزيل الحكيم، وهما: سنة الله من جهة والسنن الإنسانية من جهة أخرى. فالسنة الإلهية تتسم بالثبات وعدم التحول، ومن أدلة ذلك قوله سبحانه: "سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنةنا تحويلاً"، وهذا في مقابل السنن الإنسانية المحكومة بالتبدل والتغيير، ومثال ذلك ما ورد عن سنن الأولين في آيات عديدة منها قوله عز وجل: "قل للذين كفروا، إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين".²²

²⁰ - نفسه، ص 61

²¹ - السنة النبوية والسنة الرسولية، ص 93

²² - سورة الأنفال، الآية 38

فسنة الماضين خلت وانتهت، مما يعني أنها غير ثابتة ولا أبدية، ويعتبر شحروور أن التسنة من أهم صفات السنة، ولذلك يستنتج الدكتور محمد شحروور أن "السنن تتغير حسب ظروف المجتمعات ومتطلباتها وتطور مستوياتها المعرفية مع تقدم الوقت والأحداث التاريخية الجارية فيها. فالسنن التي يجري سننها في مرحلة تاريخية معينة يطرأ عليها التسنة؛ أي الزوال والتغير مع مرور الوقت، كما هو شأن الطعام مع مرور الوقت يصبح غير صالح للأكل، وكذلك الأمر بالنسبة للسنن الماضية التي صارت غير صالحة"²³.

إن إعادة النظر في مفهوم السنة النبوية ليس سوى مقدمة في عمل أراد منه الدكتور شحروور هدم البناء المعرفي والمنهجي للسنة النبوية في منظومة المعرفة الإسلامية، وسيوضح ذلك من خلال ما سترصده له من معاول لهدم الدعائم التي قام عليها ذلك الارتباط العضوي بين القرآن والسنة النبوية وألحنا إليه في مقدمة هذه المداخلة.

يرى الدكتور شحروور ضرورة إعادة قراءة هذا الكم الكبير من الأحاديث بناء على الاعتبارات الآتية:

- أولها: أن يتضمن إرشادا في مجال افعل ولا تفعل

- ثانيها: ألا يتعارض مع حكم إرشادي أو إخباري ورد في التنزيل الحكيم

- ثالثها: الانتباه بدقة إلى ما في الحديث من إدراج معتبرا أن الإدراج كان مطية لتجنب اتهام الرواة بالكذب

بعد أن فشا الاعتقاد بمعصوميتهم وعدالتهم.

- رابعها: ألا يكون الحديث مرسلا ولا منقطعا ولا مرفوعا"²⁴.

ونلاحظ من خلال هذه الاعتبارات التي وضعها محمد شحروور اعتماده على بعض مفاهيم علم الحديث عند علماء المسلمين (المدرج المنقطع المرسل المرفوع)، وهو ما يفيد أنه يريد الجمع بين أعمال المنهج الحديثي كما هو متعارف عليه عند علماء الحديث في السنة مع بعض الإضافات (...).

بعد هدم المفهوم المتعارف عليه للسنة من خلال القرآن الكريم، سوف يواجه الدكتور محمد شحروور مشكلة مع أطروحة الإمام الشافعي الذي أسس لحجية السنة بمفهوم آخر في القرآن الكريم، وهو الحكمة. ولذلك توجه محمد شحروور إلى القاعدة الثانية التي تقوم عليها حجية السنة النبوية عند علماء المسلمين، وهي اعتبارهم أن

²³- نفسه، ص94

²⁴- نفسه، ص21

السنة وحي إلهي انطلقا من قوله تعالى: "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" وأنها وردت في القرآن بمعنى الحكمة انطلقا من قوله تعالى: "وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم".

في الآية الأولى، يرى شحرور أنها نزلت لحسم خلاف بشأن التنزيل الحكيم، فيقول: "هل ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم على قومه وحي من عند الله أم من عند نفسه؟ ولم يكن كلام النبي صلى الله عليه وسلم خارج هذا التنزيل الموحى مطروحا من قريب ولا من بعيد... والآية تقرر أن هذا الوحي المنطوق به وحي من عند الله".

ثم تناول الدكتور شحرور الاستدلال الثاني للإمام الشافعي الذي يعتبر فيه كلمة "الحكمة" المذكورة في الآية هي السنة النبوية، فيرد عن هذا القول متسائلا: "إذا كانت الحكمة هي سنة محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا - حسب زعم الشافعي... فأين السنة عند نوح وهود وشعيب وصالح وموسى وعيسى وإلياس ويوسف، وهؤلاء جميعا يشملهم قول الله تعالى: "وإذ أخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة" (آل عمران 81)؟ وأين هي السنة عند آل إبراهيم الذين قال عنهم تعالى: "فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما" (النساء 54)؟²⁵

وهنا تبرز الحاجة الماسة إلى معرفة القراءة التي يقدمها شحرور لمعنى الحكمة من خلال القرآن الكريم، جريا على منهجه الذي سطره منذ كتابه الأول عن القراءة المعاصرة للقرآن. وسوف نقف عند هذه النقطة ونقط أخرى تشكل عناصر الرؤية الجديدة كما أسماها شحرور للسنة النبوية.

- الفرق بين السنة النبوية والسنة الرسولية:

يرى محمد شحرور أن السنة النبوية هي القصص المحمدي الوارد في التنزيل الحكيم، إضافة إلى اجتهادات النبي صلى الله عليه وسلم المنقولة في الأحاديث ولم تتعارض مع مضمون التنزيل الحكيم، بينما يرى أن السنة الرسولية "هي الرسالة المحمدية التي أنزلت وحيًا على قلبه صلى الله عليه وسلم، والواردة في أم الكتاب، وما جاء فيها من منظومة القيم والشعائر ونظرية الحدود ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي مجال الأسوة والطاعة والقُدوة والاتباع"²⁶

²⁵- نفسه، ص 59

²⁶- السنة النبوية والسنة الرسولية، ص 99

وقد أسس الدكتور محمد شحرور هذا التفريق بناء على مدخله اللغوي الأساس في تعامل مع القرآن الكريم والقائم على اللاترادف، حيث قاده هذا المنهج إلى التفريق بين ثلاث مفردات قرآنية سيعتبرها ثلاثة مقامات للنبي صلى الله عليه وسلم استنادا إلى قوله تعالى في التنزيل الحكيم: "ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما"²⁷.

وعلق الدكتور شحرور أن هذه الآية تتضمن ثلاثة مقامات للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي: مقام الرجل ومقام النبي ومقام الرسول، ثم بدأ في تفصيل كل مقام منها من خلال القرآن الكريم، فمقام الرجل خاص بحياته الشخصية ولا عصمة فيه استنادا لقوله عز وجل: "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليهم إله واحد"²⁸.

أما مقام محمد النبي، فيرى الدكتور شحرور أنه "يتمحور حول محورين اثنين هما:

- النبوة موجودة في الغيبيات داخل التنزيل الحكيم، وهي القرآن والسبع المثاني، وهذا المقام ضرورة لبعثه رسولا: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا"²⁹.

- مهمة الاجتهاد في السلطة وممارستها والقيادة العسكرية وتنظيم أمور المجتمع والقضاء"³⁰.

وفي شرحه لهذين المحورين، ذكر الدكتور شحرور كلاما خطيرا فيما يتعلق بالمهمة الأولى، وهي الإنباء بالغيبيات الكونية والتاريخية، حين قال أن النبي صلى الله عليه وسلم، بلغ هذه الأمور من دون فهمها ومن دون التمكن من شرحها لأهل زمانه، وذلك يمثل قدرا عظيما من الجرأة الزائدة على مقام النبي دون مبرر أو مسوغ واضح في العقول.

وأما مقام الرسول - وفق دراسة شحرور، فيتمثل في بيان الرسالة للناس، موضحا أن البيان هو الإعلان والبلاغ وليس الشرح، مستندا إلى قوله تعالى في آيات قرآنية منها: "إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون"³¹ وقوله تعالى: "يا أهل الكتاب قد

²⁷- سورة الأحزاب، الآية 40

²⁸- سورة الكهف، الآية 110. وسورة فصلت، الآية 106

²⁹- سورة الأحزاب، الآية 45

³⁰- السنة النبوية والسنة الرسولية، ص102

³¹- سورة البقرة، الآية 159

جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين".³²

وسوف يقوم محمد شحور بعد ذلك بتقديم أمثلة للأحاديث المتعلقة بكل مقام، وهكذا مثل لمقام الرجل بأحاديث لعق الأصابع عند الانتهاء من الطعام، وخصف النعل وحب الطيب والنساء وغيرها من الأحاديث التي لا يرى واجب الاقتداء واتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيها... ومثل لأحاديث مقام الرسول بما ينسب للنبي عليه الصلاة والسلام من الأقوال الآتية:

- من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب، فهي خداج

- إن الله يكره العبث في الصلاة والرفث في الصيام

- من مات وعليه صيام صام عنه ولية.

وغیرها من الأحاديث التي يرى شحور الأخذ بها ما لم تتعارض مع التنزيل الحكيم، وما جاء فيه من تشريعات وقيم إنسانية عليا أو مع الواقع.

ومثل للأحاديث الخاصة بمقام محمد النبي بمرويات في مجالات متعددة كالاقتصادية والسياسية والاقتصادية والتربوية... المنظمة للمجتمع ومنها نذكر:

- يا معشر الشباب من استطاع منكم البائة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع، فعليه بالصوم فإنه له وجاء.

- نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح عن متعة النساء، وفي رواية عن علي بن أبي طالب {يوم خير}. (نهى وليس تحريما)

- من سره أن ينجيهِ الله يوم القيامة، فلينفس عن معسر أو يضع عنه.

ولكن أهم ما ترتب عن نظرية الدكتور شحور في التفريق بين المقامات الثلاثة، هو اعتباره العصمة في مقام الرسالة فقط، وانتفاؤها في مقام النبوة الذي اشتق منه مصطلح السنة النبوية مقابل السنة الرسولية. فالسنة

³²- سورة المائدة، الآية 15

الرسولية تمثل الشعائر والقيم الإنسانية، والسنة النبوية اجتهادات النبي صلى الله عليه وسلم من مقام النبوة، والتي قد يقع فيها الخطأ كما في قوله تعالى: "يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك".³³

وفي كيفية التعامل مع مثل هذه الأحاديث، يعتبر الدكتور محمد شحرور أن "الفرق بيننا وبين الذين يخرون على الأحاديث النبوية صما وعميانا من دون تمييز هو أنهم يعتبرون هذه الأحاديث تشريعا ثابتا إلى يوم القيامة، بينما نعتبرها نحن تنظيما يتغير بتغير الأحوال" ويمثل لكلامه هذا بحديث النهي عن سفر المرأة من دون محرم معتبرا أن العلة في ذلك هي الأمن عليها، وقد أصبح متوفرا في الطائرة أو الباخرة أو القطار....

وكما خلص حاج حمد في دراساته إلى أن النبي لم يفسر القرآن، حتى لا يرتهن بظرفية تاريخية محددة، تابعه محمد شحرور بطرح السؤال التالي: هل فسر النبي صلى الله عليه وسلم القرآن؟ ثم يجيب: "إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسر القرآن إطلاقا، ولو فسره لقضى على نبوته وعالميته وخاتمته بنفسه. وإذا فتحنا كتب التفسير وجدنا فيها كل شيء ما عدا التفسير...".³⁴

خاتمة:

تميزت طروحات أبي القاسم حاج حمد بالابتعاد عن الغوص في التفاصيل في موضوع السنة النبوية والتأكيد على أهمية البعد المنهجي الذي يبينه القرآن في علاقته بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء عن غيره من الأنبياء. ولذلك انتهى إلى اعتبار التصديق والهيمنة منهجا صالحا للاستخدام ليس فقط بين القرآن والموروث الديني السابق، وإنما بين القرآن والمرويات الحديثية المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما يقوي الكفاءة المنهجية في التعامل مع السنة النبوية، خصوصا وأن حاج حمد يؤكد على أهمية قيمتها كما رأينا، بل إنه يرى أن السنة وحي مواز للقرآن انطلاقا من الحديث (أوتيت الكتاب ومثله معه)، في حين ينفي الدكتور شحرور أطروحة الوحيين التي أسسها الإمام الشافعي في كتابه الرسالة اعتمادا على قوله تعالى: "وما ينطق عن الهوى غن هو إلا وحي يوحى"³⁵ وتابعه من جاء بعده على ذلك التفسير. كما تميز الدكتور شحرور بمناقشة التفاصيل التي بنى عليها الفكر الإسلامي أهمية السنة النبوية، فقام بمراجعة لمفهوم السنة انطلاقا من القرآن الكريم، ونفى أيضا أن تكون السنة هي الحكمة مفندا رأي الشافعي كما رأينا. وأضاف إلى ذلك، أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس له حق التحليل والتحريم، وأن ذلك لا يكون إلا لله وحده.

³³- سورة التحريم، الآية 1

³⁴- السنة النبوية والسنة الرسولية، ص 207

³⁵- سورة النجم.

بعض المراجع المعتمدة:

- محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار الهادي، ط. الأولى، 2004
- محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، تقديم ومراجعة محمد العاني، دار الساقي، ط3، 2012
- محمد أبو القاسم حاج حمد، ابستمولوجية المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي، ط. الأولى، 2004
- المهندس محمد شحرور، السنة النبوية والسنة الرسولية رؤية جديدة، دار الساقي، ط الأولى، 2012



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com